سلسلة في ظلال السنة

الأثر الثالث عشر

التحذير من المفاجآت السيِّئة يوم القيامة



الشيخ الدكتور
سالم بن عبد الغني الرافعي

التحذير من المفاجآت السيئة
يوم القيامة


بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة في ظلال السنّة
الأثر الثالث عشر

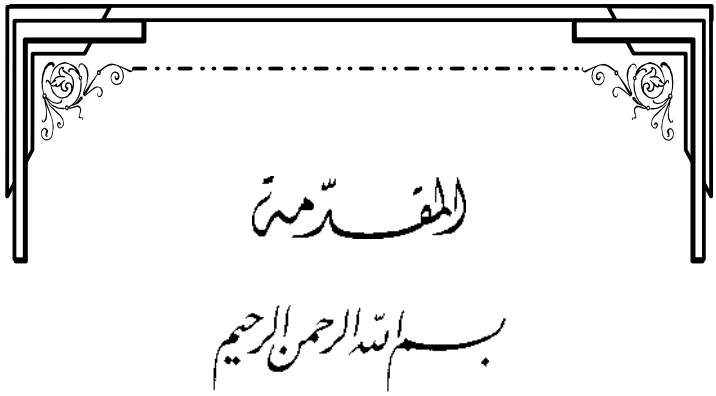
التحذير من المفاجآت السيئة يوم القيامة

الشيخ الدكتور
سالم بن عبدالغني الرافعي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م



اللَّهم إنّا نحمدك حمدًا يوافي نِعمك، ويُكافي مَزيدك، لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك. ونصلي ونسلم على عبدك ورسولك وصفوتك من خلقك محمد بن عبدالله صلوات ربي وسلامه عليه، **وبعد**:

فإن السنّة النبوية ذَخَرت بكثير من الأحكام والمواعظ والعِبر. وقد دَرَج العلماء على مرّ العصور على تأليف المصنّفات في شرح أحاديث الأحكام وغيرها من أنواع الحديث، ليسهُل على الناس الإفادة منها.

ومعلوم أن لكل عصرٍ درجتَه في فهم العلوم واستيعابها، فما كان شرحًا يفهمه أهل عصر، قد يستعجم على من بعدهم حتى يحتاجوا إلى شرح للشرح، مع ما يستجدّ في حياة الأمة من هموم وأوضاع وتغيّرات.

لذلك حَسُن في رأيي أن يكون الشرح مناسبًا لأهل كل عصر، يراعي مستواهم العلمي واللغوي، كما يتطرق إلى مشاكلهم المستجدّة، وليس إلى مشاكل عصر سبق لم تعد ذات بال عندهم.

وقد بدأت هذه الخطوة في خُطب الجمعة، إذ بدأت أشرح فيها جملة من أحاديث النبي ﷺ، وأربطها بالواقع الذي نعيش فيه. وهذا أعظم أثرًا في النفوس من تحويل خطب الجمعة إلى نشرات أخبار سياسية، تخلو من ذكر الآيات والأحاديث، ولا تزيد في معطياتها عن أي نشرةٍ للأخبار، فتخرج بالخطبة عن موضوعها الذي شرعت لأجله، وهو وعظ الناس وتعليمهم.

ثم رأيت نشر هذه الخُطب في رسائل صغيرة

عسى أن يعمّ نفعها، وسمّيتها: «**في ظلال السنّة**».

واللهَ أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

وكتبه
الشيخ الدكتور سالم بن عبدالغني الرافعي
في طرابلس ـ لبنان
بتاريخ ٢٤/شوال/ ١٤٤٢هـ
الموافق له ٠٤/حزيران/ ٢٠٢١م

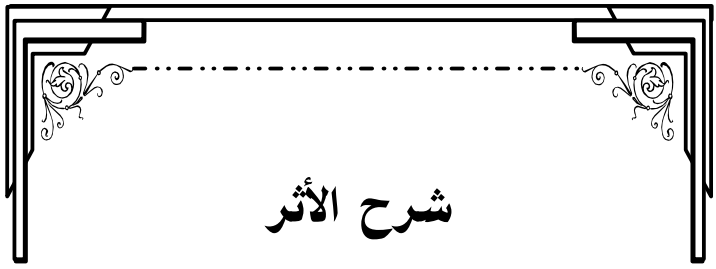


متن الأثر

عن ابن عباس ﷺ قال: قَالَ عُمَرُ ﷺ يَوْمًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: فِيمَ تَرَوْن هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾؟ قَالُوا: اللهُ أَعْلَمُ، فَغَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ: قُولُوا نَعْلَمُ أَوْ لَا نَعْلَمُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ. قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِي قُلْ وَلَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ. قَالَ عُمَرُ: أَيُّ عَمَلٍ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ ﷻ، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ»[1].

❀ ❀ ❀ ❀

(١) أخرجه البخاري برقم: (٤٥٣٨).



شرح الأثر

الأثر في اصطلاح المحدّثين يُطلق على ما كان من قول الصحابة ﷺ، وأمّا ما كان من قول النبي ﷺ فيُسمّى حديثًا. وفي الأثر الذي معنا، يسأل عمر ﷺ أصحاب النبي ﷺ عن تفسير آيةٍ من كتاب الله تعالى. ووقع هذا السؤال في زمن خلافة عمر ﷺ، لأن ابن عباس ﷺ خاطبه بقوله: يا أمير المؤمنين.

فسألهم عمر ﷺ عن تفسير قول الله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾[1].

(١) البقرة: ٢٦٦.

فأجاب الصحابة ﷺ بقولهم: الله أعلم، فغضب عمر ﷺ من جوابهم هذا. وقد يتعجّب القارئ من سبب غَضْبة عمر ﷺ هذه، مع أنّ الصحابة ﷺ لم يَحيدوا عن الصواب حين ردّوا العلم في تفسير الآية إلى الله تعالى.

والسبب ـ في نظري ـ من غضبة عمر ﷺ: أنّه حين صار أميرًا للمؤمنين كان من عادته أن يدعو كبار الصحابة ﷺ إلى مجلسه ليستشيرهم فيما يطرأ عليه من أمور الناس والحُكم والفتوحات والنوازل وغيرها من المسائل العظام، وكان يدعو معهم إلى مجلسه التشاوري عبدَ الله بن عباس ﷺ رغم أنه كان صغيرًا في السنّ مقارنةً بكبار الصحابة. فامتعض بعض الصحابة من عمر ﷺ لتخصيصه ابن عباس ﷺ بالدعوة دون سائر أبنائهم الذين هم في مثل سنّه، ولما سألوه عن ذلك أجابهم عمر ﷺ بجواب عام يدلّ على تميُّز ابن عباس ﷺ على سائر أقرانه، غير أنّ هذا الجواب لم يُقنعهم. لذلك صار عمر ﷺ يتعمّد اختبارهم بالأسئلة العلميّة في حضور ابن عباس ﷺ، من أجل أن يُظهر لهم تميّز ابن عباس

ﷺ وتفوّقه بالعلم على سائر أقرانه.

فلمّا سألهم في هذا المجلس عن تفسير الآية الكريمة، أجابوه بقولهم: «الله أعلم»، وهو جواب مُحتمِل، إذ يَحتمل أنّه ليس عندهم علم بتفسيرها لذا ردّوه إلى الله تعالى، كما يَحتمل أنّ عندهم في تفسيرها علمًا ولكن لم يُحبّوا إظهاره من باب التواضع أو من باب الأدب مع كبارهم.

فغضب عمر ﷺ من جوابهم المحتمِل هذا، لأنّه لم يسألهم عن معنى الآية مستفسرًا، فقد كان يعلم تفسيرها، وإنما سألهم مُختبرًا لعلمهم، لذلك قال لهم: قولوا نعلم أو لا نعلم، أي: إذا كنتم تعلمون تفسيرها فأظهروا علمكم، وإذا كنتم لا تعلمون فقولوا بصراحة: لا نعلم، ولا تُوَرّوا بهذا الجواب المحتمِل.

فسكت الصحابة ﷺ ولم يذكروا شيئًا، وهذا يؤكد الاحتمال الثاني: أنهم لم يكونوا يعلمون تفسير الآية الكريمة.

فانبرى عندها ابن عباس ﷺ، وهو أصغرهم سنًّا، ليُدلي فيها بدلوه، وهذا الذي كان يرجوه عمر

ﷺ، لذلك شجّعه على الكلام بقوله: «**يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك**»، ثم ساعده بالجواب، كما سنرى، لأنّ عمر ﷺ كان يعلم المراد منها كما سبق وبيّنّا.

ويدلّ على كل ما ذكرت: أثر آخر رواه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: «كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ[١]، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ. فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ. قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾؟[٢]. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا، وَفُتِحَ عَلَيْنَا. وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا. فَقَالَ لِي: أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لَا. قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ لَهُ،

(١) أشياخ بدر: أي كبار السنّ من الصحابة الذين شهدوا غزوة بدر مع النبي ﷺ.
(٢) النصر: ١.

قَالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ وَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾[1]، فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ»[2].

ففي هذا الأثر أراد عمر رضي الله عنه أن يُرِيَ الصحابة، الذين كانوا ينزعجون من دخول ابن عباس معهم إلى مجلس التشاور، منزلة ابن عباس رضي الله عنه في العلم والذكاء والفِطنة، فجمعهم جميعًا وأدخله معهم، ثم سألهم عن تفسير هذه السورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾. فانقسموا عندها إلى قسمين: قسم سكت، وقسم قال: إن الله أَمَرَنَا إِذَا فَتَحَ عَلَيْنَا الْمَدَائِنَ وَالْحُصُونَ أَنْ نُسَبِّحَهُ ونحمده وَنَسْتَغْفِرَهُ.

وتفسيرُ هؤلاء هو بلا ريب تفسير صَحِيحٌ، وهو الذي يظهر من معنى السورة، غير أن السورة

(١) النصر: ٣.

(٢) أخرجه البخاري برقم: (٤٩٧٠).

أشارت إلى معنى آخر، معنى خفيّ لا يتفطّن له إلا الراسخون في العلم، وهو دنوّ أجل رسول الله ﷺ.

فكأنّ الله تعالى قال لرسوله ﷺ: اعْلَمْ يا رسولنا أَنَّكَ إِذَا فَتَحْتَ مَكَّةَ، وَهِيَ قَرْيَتُكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ، ورأيت الناس يستجيبون لرسالتك ويدخلون فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، فاعلم حينها أنك قَد أدّيت واجبك كرسول، وانتهت بالتالي مهمّتك في هذه الحياة، فَتَهَيَّأْ عندها لِلْقُدُومِ عَلَيْنَا وَالْوُفُودِ إِلَيْنَا بكثرة التسبيح والاستغفار.

وقد تفطّن ابن عباس رضي الله عنه لهذا المعنى الخفي فأبرزه، ووافقه عليه عمر رضي الله عنه، وظهر بالتالي لكبار الصحابة فضل ابن عباس رضي الله عنه وتقدّمه في العلم، وكيف لا، وقد دعا له النبي ﷺ بقوله «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[1].

❀ ❀ ❀ ❀

(١) أخرجه البخاري برقم: (١٤٣)، ومسلم برقم: (٢٤٧٧).

تفسير الآية الكريمة

والآن نأتي بعون الله تعالى إلى تفسير الآية الكريمة الواردة في الأثر.

قال الله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾[1].

تبدأ هذه الآية الكريمة بسؤال لا يُراد به حقيقة الاستفهام، وإنما يتضمّن معنى الاستنكار، أي: هل يتمنى أحدكم أن يكون له بستان قد غرس فيه من جميع الثمار على اختلاف ألوانها وطعومها، سيما

(١) البقرة: ٢٦٦.

ثمار النخيل والأعناب وما تتميّز به من فوائد ومنافع. وتنتشر في جَنَبات بستانه سواقي عذبة فتروي أشجاره وثماره من غير عناء ولا مؤنة. وكان صاحب البستان فرحًا ببستانه ومغتبطًا به، سيما حين أدركه الهرم وضَعُفَت همَّتُه وعجز عن الاكتساب، فلم يبقَ له مصدر رزق يُدِرّ عليه وعلى أولاده الصغار سوى هذا البستان.

وبينما هو على هذه الحال من الاطمئنان والاغتباط، إذا بإعصار شديد تُصاحبه نار عظيمة تأتي على بستانه فتحرقه.

أصيب صاحب البستان بصدمة كبيرة وعَلَتْه الهموم والأحزان، لأنه حُرِم من بستانه في أشدّ الأوقات احتياجًا إليه، وأُسقط في يده، إذ لم يَعُد عنده من الهمّة ما يغرس غيره لعجزه وضعفه، ولا عند أولاده ما يعينون به لضعفهم وقلة حيلتهم.

فهل يتمنى أحدكم أن يكون حاله كحال صاحب هذا البستان، بنى حياته كلها وعقد آماله على بستانه هذا، وكان يُعدّه لوقت ضيقه وشدّته، حتى إذا كبُر سِنّه وضعُفت قوّته وازدادت تكاليف

الحياة عليه لضعف أولاده، وصار البستان في نظره قارب النجاة الذي يُمدّه وأولاده بأسباب الحياة، إذا بإعصار ناري يفجؤه فيحرق بستانه ويحرق معه كل أمانيه وأحلامه وآماله بالنجاة، وقعد ينتظر نهايته البائسة، إذ لم يعد بإمكانه أن يُعيد ما مضى ولا أن يستدرك ما فات.

فهذا هو المعنى الظاهر للآية، ولا شك أن الصحابة ﷺ، الذين سألهم عمر ﷺ عن تفسير هذه الآية الكريمة، كانوا يدركون هذا المعنى، وما كان ليخفى عليهم مثله في الظهور وهم العرب الأقحاح، وإنّما الذي خفي عليهم هو المعنى الذي يُراد تدبّره من وراء هذه الآية، والمعنى الذي ضُربَت القصة مثلًا له، وهذا الذي سألهم عنه عمر ﷺ فأعياهم جوابه. وبعدما أعياهم الجواب تقدّم ابن عباس ﷺ ليُدلي بدلوه ولم يتقدّم قبلها أدبًا مع الكبار. فقَالَ: **فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ**. أي وقر في نفسي المعنى المقصود من القصة يا أمير المؤمنين. **قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِي قُلْ وَلَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ**، هنا خاطبه عمر بقوله: «يا ابن أخي» تحبّبًا لصغر سنّه،

ثم شجّعه على الكلام بحضرة الكبار وأن لا يستصغر نفسه. **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ.** أي هذه القصة إنما ذُكرت للتحذير من عمل ما. **قَالَ عُمَرُ: أَيُّ عَمَلٍ؟** لمّا أجاب ابن عباس ﵄ بجواب مُجمَل هنا طلب منه عمر ﵁ تفصيل الجواب، لكن وقبل أن يُتِمّ ابن عباس ﵄ تفصيل جوابه، أدرك عمر ﵁ من جوابه المُجمَل أنه فاهم للمعنى الخفيّ الذي سيقت القصة للتحذير منه، لذلك بادر عمر ﵁ إلى بيان المعنى التفصيلي، **فَقَالَ: لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ ﷻ، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ.**

ومعنى كلامه هذا: أن الآية ضُربت مثلًا لرجل غنيّ عمل في حياته الدنيا كثيرًا من الأعمال الصالحة، كحال صاحب البستان الذي غرس في بستانه كثيرًا من الأشجار المثمرة. وإنما خصّ الغني بالذكر للإشارة إلى كثرة أعماله الصالحة، فأبواب الخير عند الغنيّ الطائع أوسع منها عند الفقير الطائع.

وكما اغتبط صاحب البستان بثماره وفرح بها،

خاصّة عندما أدركه كِبَرُ السنّ وضَعف الهمة وفَقْد المُعيل، كذلك اغتبط صاحب الأعمال الصالحة بحسناته وفرح بها، خاصّة حين بُعث من قبره للحساب وعُرضت عليه أعماله، إذ ينقطع في الآخرة العمل ولا ينفعه إلا ما سَبَق وعَمِله في الدنيا، كما انقطعت الحيلة بصاحب البستان عند كِبَر سنّه ولم ينفعه إلا ما غرسه وقت شبابه وقوّته، وكذلك ينقطع في الآخرة النسب فلا ينفعه الأقارب ولا البنون، كما لم ينتفع صاحب البستان بأولاده لضعفهم وقلة حيلتهم.

وبينما صاحب الأعمال الصالحة على هذه الحال من الفرحة والاغتباط بحسناته يوم القيامة، إذا به يُفاجأ بسيآت لم يكن يتوقّعها أو يحسِب لها حسابًا، فتأتي على حسناته كلها حتى تُحبِطها، كما فوجئ صاحب البستان بإعصار ناري لم يكن يتوقعه فأتى على ثماره وأحرقها.

وأُسقِط في يد صاحب الحسنات، لأنه حُرِم من حسناته في أشدّ الأوقات احتياجًا إليها، فلا هو قادر على الرجوع إلى الدنيا ليستدرك ما فاته، ولا

أولاده قادرون على نفعه يوم القيامة، كما أُسقط في يد صاحب البستان حين حُرم من ثماره في أشدّ الأوقات احتياجًا إليها، فلا هو قادر على إعادة غرسها لضعف قوّته، ولا أولاده قادرون على إعانته لضعفهم.

والعبرة من القصة: أنه إذا كان أحدكم لا يتمنّى أن يكون مصيره في الدنيا كمصير صاحب هذا البستان في التوجّع والتحسّر حين فقد ثماره في أشدّ الأوقات احتياجًا إليها، فمن باب أولى ألا تتمنّوا أن يكون مصيركم في الآخرة كمصير من يُحرم من حسناته في أشدّ الأوقات احتياجًا إليها، فإنّها أعظم توجّعًا وأشدّ تحسّرًا.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا المثل مضروب لمن عمل عملًا لوجه الله تعالى من صدقة أو غيرها ثم عمل أعمالًا تُفسده، فمثله كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات، وخُصّ منها النخل والعنب لفضلهما وكثرة منافعهما، لكونهما غذاء وقوتًا وفاكهة وحلوى، وتلك الجنة فيها الأنهار الجارية التي تسقيها من

غير مؤنة، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرّته، ثم إنه أصابه الكبر فضَعُف عن العمل وزاد حرصه، وكان له ذرية ضعفاء ما فيهم معاونة له، بل هم كَلّ عليه، ونفقته ونفقتهم من تلك الجنّة، فبينما هو كذلك إذ أصاب تلك الجنة إعصار وهو الريح القوية التي تستدير ثم ترتفع في الجو، وفي ذلك الإعصار نار فاحترقت تلك الجنة، فلا تسأل عمّا لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهمّ والغمّ والحزن، فلو قُدّر أنّ الحزن يقتل صاحبه لقتله الحزن. كذلك من عمل عملًا لوجه الله فإنّ أعماله بمنزلة البذر للزروع والثمار، ولا يزال كذلك حتى يحصل له من عمله جنّة موصوفة بغاية الحسن والبهاء، وتلك المُفسدات التي تفسد الأعمال بمنزلة الإعصار الذي فيه نار، والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات وكان بحالة لا يقدر معها على العمل، فيجد عمله الذي يؤمّل نفعه هباء منثورًا، ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب. فلو علم الإنسان وتصوّر هذه الحال وكان له أدنى مسكة من عقل لم يُقدِم على ما فيه مضرّته

ونهاية حسرته، ولكن ضعف الإيمان والعقل وقلة البصيرة يُصيّر صاحبه إلى هذه الحالة التي لو صدرت من مجنون لا يعقل لكان ذلك عظيمًا وخطره جسيمًا، فلهذا أمر تعالى بالتفكر وحثَّ عليه، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾. ولكأنّ الله تعالى يقول للناس بعد هذا التصوير البديع المؤثّر: احذروا أن تُبطلوا أعمالكم الصالحة بارتكابكم لما نهى الله عنه، فلا تجدون لها نفعًا يوم القيامة وأنتم في أشدّ الحاجة إليها في هذا اليوم العصيب، لأنكم إذا فعلتم ذلك كان مثلكم في التحسّر والحزن كمثل هذا الشيخ الكبير الذي احترقت جنّته وهو في أشدّ الحاجة إليها. ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: كما يبيّن الله في هذه الآية ما يهديكم وينفعكم، يبيّن لكم آياته وهداياته في سائر أمور دينكم لكي تتفكروا فيما يصلحكم، وتعملوا ما يرضي خالقكم»[1].

(١) تيسير الكريم الرحمٰن (ص: ١١٤).

أمثلة على بعض المُفسدات للأعمال الصالحة

لقد حذّرت الآية الكريمة من مصير ذلك الذي يُحرَم من حسناته في أشدّ الأوقات احتياجًا إليها، والمصيبة عند هذا المحروم تكمُن في جهتين:

الأولى: أنّ الأعمال التي أحرقت حسناته فاجأته ولم يكن قد عمل لها حسابًا أو لم يكن يظنّ أنّها ستبلغ في الضرر ما بلغت.

والثانية: أنه حين أدرك خطورة تلك المُفسدات على أعماله الصالحة لم يعد بمقدوره استدراك ما فات، فلو تفطّن لها في الدنيا لأمكنه الاستدراك، أمّا وقد صار إلى الآخرة فقد فات الأوان.

لذلك حَسُن في رأيي لخطورة هذه المسألة:

أن أذكر بعض الأعمال التي لا ينتبه لها الناس ولكنها تُفسد عليهم أعمالهم الصالحة وتذهب بحسناتهم.

❋ ❋ ❋

المثال الأول

رجل تصدّق بصدقات كثيرة لوجه الله تعالى، فكُتبت له بها حسنات عظام. غير أنه كان يمنّ على من تصدّق عليهم، فيذكّرهم بفضله عليهم وإحسانه لهم عند كل مناسبة، وينتظر منهم أن يُعظّموه ويرفعوه ويَسعَوْا في خدمته مقابل إحسانه لهم، أو أن يتحمّلوا الإساءة التي تصدر منه بحقهم، سواء كانت إساءته لهم بالقول أو بالفعل، وليس لهم أن يردّوا على إساءاته أبدًا، فإن بدا لهم يومًا أن يردّوا على إساءته بمثلها أو أقل منها، نَهَرهم وزجَرهم وذكّرهم بفضائله عليهم وجمائله التي لا تعدّ ولا تُحصى، ثم يدور بها في المجالس فيذكر كيف أحسن لهؤلاء القوم ثم

أحسن وأحسن، وكيف أنهم قابلوا جمائله وصنائعه بالنكران والجُحود.

قال الطنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: والمنّ معناه: أن يتطاول المُحسن بإحسانه على من أحسن إليه، ويتفاخر عليه بسبب ما أعطاه من عطايا، كأن يقول على سبيل التفاخر والتعيير: لقد أحسنتُ إليك وأنقذتك من الفقر وما يشبه ذلك»[1].

فاذا بُعث هذا المنّان يوم القيامة ورأى ثواب صدقاته الكثيرة حاضرًا أمام عينيه، اغتبط به وفرح فرحًا شديدًا وظنّ أنّه من أهل النعيم، ثم لم تَطل فرحتُه كثيرًا حين رأى جزاء مَنّه وإيذائه للمتصدَّق عليهم قد أتى على ثواب صدقاته كلها كإعصار فيه نار فأحرقه، فيُسقط عندها في يده ويتحسّر أشدّ التحسّر، لأنه خسر حسناته في أشدّ الأوقات احتياجًا إليها. فمن هنا جاءت النصوص الشرعيّة بالتحذير من المنّ على المتصدّق عليهم أو الأذى لهم، وبيّنت أنّ ذلك مُبطل للصدقات وماحق للحسنات.

---

(١) التفسير الوسيط للطنطاوي (١/٦٠٤).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾[1].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يمدح تبارك وتعالى الذين ينفقون في سبيله، ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالصَّدَقَاتِ مَنًّا عَلَى مَنْ أَعْطَوْهُ، فَلَا يَمُنُّونَ به عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَمُنُّونَ بِهِ لَا بِقَوْلٍ ولا بفعل. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَآ أَذًى﴾ أَيْ: لَا يَفْعَلُونَ مَعَ مَنْ أَحْسَنُوا إِلَيْهِ مَكْرُوهًا يُحْبِطُونَ بِهِ مَا سلف من الإحسان. ثم وعدهم الله تَعَالَى الْجَزَاءَ الْجَزِيلَ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ ثَوَابُهُمْ عَلَى اللهِ لَا عَلَى

(١) البقرة: ٢٦٢ ـ ٢٦٤.

أَحَدٍ سِوَاهُ. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أَيْ: عَلَى مَا خَلَّفُوهُ من الأولاد، ولا ما فَاتَهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا لَا يَأْسَفُونَ عَلَيْهَا، لِأَنَّهُمْ قَدْ صَارُوا إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أَيْ: مِنْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَدُعَاءٍ لمسلم، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: عفو وغُفْر عن ظُلْم قَوْلِيٍّ أَوْ فِعْلِيٍّ ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عَنْ خَلْقِهِ، ﴿حَلِيمٌ﴾ أَيْ: يَحْلُمُ وَيَغْفِرُ وَيَصْفَحُ وَيَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ.

وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ بِالنَّهْيِ عَنِ الْمَنِّ فِي الصَّدَقَةِ، فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ**[1]، **وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ**»[2]. ولهذا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾

(١) أي: الذي يطيل ثوبه ويجرّه على الأرض للخيلاء.
(٢) أخرجه مسلم برقم: (١٧١).

فَأَخْبَرَ أَنَّ الصَّدَقَةَ تَبْطُلُ بِمَا يَتْبَعُهَا مِنَ الْمَنِّ وَالْأَذَى، فَمَا يَفِي ثَوَابَ الصَّدَقَةَ بِخَطِيئَةِ الْمَنِّ وَالْأَذَى. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَمَا تَبْطُلُ صَدَقَةُ مَنْ رَاءَى بِهَا النَّاسَ، فَأَظْهَرَ لَهُمْ أَنَّهُ يُرِيدُ وَجْهَ اللهِ، وَإِنَّمَا قَصْدُهُ مَدْحُ النَّاسِ لَهُ أَوْ شُهْرَتُهُ بِالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ لِيُشْكَرَ بَيْنَ النَّاسِ، أَوْ يُقَالَ إِنَّهُ كَرِيمٌ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ، مَعَ قَطْعِ نَظَرِهِ عَنْ مُعَامَلَةِ اللهِ تَعَالَى وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ وَجَزِيلِ ثَوَابِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

ثُمَّ ضَرَبَ تَعَالَى مَثَلَ ذَلِكَ الْمُرَائِي بِإِنْفَاقِهِ، قَالَ الضَّحَّاكُ: وَالَّذِي يُتْبِعُ نَفَقَتَهُ مَنًّا أَوْ أَذًى، فَقَالَ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾، وَهُوَ الصَّخْرُ الْأَمْلَسُ، ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ وَهُوَ الْمَطَرُ الشَّدِيدُ، ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أَيْ: فَتَرَكَ الْوَابِلُ ذَلِكَ الصَّفْوَانَ صَلْدًا أَيْ: أَمْلَسَ يَابِسًا، أَيْ: لَا شَيْءَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ التُّرَابِ، بَلْ قَدْ ذَهَبَ كُلُّهُ، أَيْ: وَكَذَلِكَ أَعْمَالُ الْمُرَائِينَ تَذْهَبُ وَتَضْمَحِلُّ عِنْدَ اللهِ وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ أَعْمَالٌ فِيمَا يَرَى النَّاسُ كَالتُّرَابِ،

وَلِهَـٰذَا قَالَ: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[1].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾.

أي: الذين ينفقون أموالهم في طاعة الله وسبيله، ولا يُتبعونها بما يُنقصها ويُفسدها من المنّ بها على المنفَق عليه بالقلب أو باللسان، بأن يُعدّد عليه إحسانه ويطلب منه مقابلته، ولا أذيّة له قوليّة أو فعليّة، فهؤلاء لهم أجرهم اللائق بهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فحصل لهم الخير واندفع عنهم الشر لأنهم عملوا عملًا خالصًا لله سالمًا من المُفسدات.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: تعرفه القلوب ولا تنكره، ويدخل في ذلك كل قول كريم فيه إدخال السرور على

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (٥٣٣/١) ببعض التصرف.

قلب المسلم، ويدخل فيه ردّ السائل بالقول الجميل والدعاء له، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لمن أساء إليك بترك مؤاخذته والعفو عنه، ويدخل فيه العفو عما يصدُر من السائل ممّا لا ينبغي، فالقول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي يتبعها أذى، لأن القول المعروف إحسان قولي، والمغفرة إحسان أيضًا بترك المؤاخذة، وكلاهما إحسان ما فيه مُفسد، فهما أفضل من الإحسان بالصدقة التي يتبعها أذى بمنّ أو غيره.

ومفهوم الآية أن الصدقة التي لا يتبعها أذى أفضل من القول المعروف والمغفرة.

وإنما كان المنّ بالصدقة مُفسدًا لها مُحرّمًا، لأن المِنّة لله تعالى وحده، والإحسان كله لله، فالعبد لا يمنّ بنعمة الله وإحسانه وفضله، وهو ليس منه، وأيضًا فإن المانّ مستعبِدٌ لمن يمنّ عليه، والذّلّ والاستعباد لا ينبغي إلا لله، والله غنيّ بذاته عن جميع مخلوقاته، وكلها مفتقرة إليه بالذات في جميع الحالات والأوقات، فصدقتكم وإنفاقكم وطاعاتكم يعود مصلحتها إليكم ونفعها إليكم، ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عنها، ومع هذا فهو ﴿حَلِيمٌ﴾ على من عصاه لا

يعاجله بعقوبة مع قدرته عليه، ولكن رحمته وإحسانه وحلمه يمنعه من معاجلته للعاصين، بل يمهلهم ويصرّف لهم الآيات لعلهم يرجعون إليه وينيبون إليه، فإذا علم تعالى أنه لا خير فيهم ولا تغني عنهم الآيات ولا تفيد بهم المثلات أنزل بهم عقابه وحرمهم جزيل ثوابه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾.

ينهى عباده تعالى لطفًا بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمنّ والأذى، ففيه أن المنّ والأذى يُبطل الصدقة. ويُستدلّ بهذا على أنّ الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾[1]، فكما أن الحسنات يُذهبن السيئات،

(١) الحجرات: ٢.

فالسيئات تُبطل ما قابلها من الحسنات.

وفي هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ حثٌّ على تكميل الأعمال وحفظها من كل ما يُفسدها لئلا يضيع العمل سُدى. وقوله: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: أنتم وإن قصدتم بذلك وجه الله في ابتداء الأمر، فإنّ المِنّة والأذى مُبطلان لأعمالكم، فتصير أعمالكم بمنزلة الذي يعمل لمراءاة الناس ولا يريد به الله والدار الآخرة.

فهذا لا شك أن عمله من أصله مردود، لأن شرط العمل أن يكون لله وحده وهذا في الحقيقة عمل للناس لا لله، فأعماله باطلة وسعيه غير مشكور. فمثله المطابق لحاله ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس الشديد، ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ أي: مطر غزير ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أي: ليس عليه شيء من التراب، فكذلك حال هذا المرائي، قلبه غليظ قاس بمنزلة الصفوان، وصدقته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الصفوان، إذا رآه الجاهل بحاله ظنّ أنّه أرض زكية قابلة للنبات، فإذا

انكشفت حقيقة حاله زال ذلك التراب وتبيّن أن عمله بمنزلة السراب، وأن قلبه غير صالح لنبات الزرع وزكائه عليه، بل الرياء الذي فيه والإرادات الخبيثة تمنع من انتفاعه بشيء من عمله. فلهذا قال: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ من أعمالهم التي اكتسبوها، لأنهم وضعوها في غير موضعها وجعلوها لمخلوق مثلهم، لا يملك لهم ضررًا ولا نفعًا وانصرفوا عن عبادة من تنفعهم عبادته، فصرف الله قلوبهم عن الهداية، فلهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

وقال الطنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والذي ينظر في هذه الآيات الكريمة يرى أن الله تعالى قد حذر المُنفقين من المنّ والأذى في ثلاث آيات متواليات، كما حذرهم من الرياء، وساق أكثر من تشبيه لتقبيح الصدقات التي لا تكون خالصة لوجه الله، فلماذا كل هذا التشديد في النهي؟

والجواب عن ذلك: أن المنّ والأذى في

(١) تيسير الكريم الرحمٰن (ص: ١١٤).

الإنفاق كثيرًا ما يحصلان بسبب استعلاء كاذب، أو رغبة في إذلال المحتاج وإظهاره بمظهر الضعيف، وكلا الأمرين لا يَليق بالنفس المؤمنة المخلصة، ولا يتلاقى مطلقًا مع الحِكَم التي من أجلها شُرِعت الصدقات بل إنه ليتنافر معها تنافرًا تامًّا، لأنّ الصدقات شرعها الله لتهذيب النفوس وتطهير القلوب ولتربط بين الأغنياء والفقراء برباط المحبة والمودة والإخاء، فإذا ما صاحبها المنّ والأذى أثمرت نقيض ما شرعت له، لأنها تثير في نفس المُعطي شعورًا بالكِبر والخيلاء وغير ذلك من الصفات الذميمة، وتثير في نفس الآخذ شعورًا بالحقد والانتقام ممن أعطاه ثم آذاه، وبذلك تنقطع الروابط ويتمزّق المجتمع، وتتحوّل المحبّة إلى عداوة.

ولقد تحدّث الإمام الرازي عن الآثار السيئة للمنّ والأذى فقال ما ملخصه:

وإنما كان المنّ مذمومًا لوجوه:

الأول: أن الفقير الآخذ للصدقة مُنكسر القلب لأجل حاجته إلى صدقة، فإذا أضاف المُعطي إلى

ذلك إظهار الإنعام زاد ذلك في انكسار قلبه، فيكون في حكم المَضرّة بعد المنفعة، وفي حكم المُسيء إليه بعد أن أحسن إليه.

والثاني: أنّ إظهار المنّ يُبعد أهل الحاجة عن الرغبة في صدقته إذا اشتُهر من طريق ذلك.

الثالث: أنّ المُعطي يجب أن يعتقد أن هذه النعمة من الله تعالى عليه، وأن يعتقد أنّ لله عليه نعمًا عظيمة حيث وفقه لهذا العمل، ومتى كان الأمر كذلك امتنع عن أن يجعل ما ينفقه مِنّة على الغير.

الرابع: أن المُعطي في الحقيقة هو الله، ومتى اعتقد العبد ذلك استنار قلبه، أما إذا اعتقد غير ذلك فإنه يكون في درجة البهائم الذين لا يَترقّى نظرهم عن المحسوس إلى المعقول، وعن الآثار إلى المؤثّر»[1].

❋ ❋ ❋

(١) التفسير الوسيط للطنطاوي (٦٠٩/١).

المثال الثاني

رجل يصلي ويصوم ويزكّي ويحجّ ويعتمر، غير أنه سيء الخلق، فإذا كان في البيت لم تسلم زوجته من لسانه ونكده، وإذا كان في المجالس لم يسلم أحد من لسانه وطعنه وسوء ظنّه، إلى جانب غِشه للناس في بيعه وشرائه وسائر معاملاته. فيُبعث هذا المسكين يوم القيامة وهو مطمئن إلى أعماله الصالحة، وإذا نظر إلى صحيفة عمله وجد ثواب صلاته وصومه وزكاته وحجّه وعمرته، فيغلب على ظنه أنه ناجٍ وأنه ذاهب إلى الجنة، فإذا بمَلَك من الملائكة يأخذه وينادي به على الناس الذين عاصروه في الدنيا فيقول: هذا فلان بن فلان، فمن كان له عليه حق فليأخذه الآن. فيأتي كل من ظُلم من قبل هذا الرجل في الدنيا ليستوفي حقّه منه، واستيفاء الحقوق في الآخرة يكون بالحسنات والسيئات، فيُفاجأ صاحبنا هذا بأنّ كل الحسنات التي جمعها في الدنيا قد استُنفدت بسبب المظالم التي ارتكبها

بحق الناس، فيخسر حسناته في أشدّ الأوقات احتياجًا إليها ويُسقط في يده.

ودليل هذا المثال ما رواه ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ قال: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ، حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ عَنْ هَارُونَ بْنِ عَنْتَرَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ زَاذَانَ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: يُؤْتَى بِالْعَبْدِ وَالْأَمَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُنَادِي مُنَادٍ عَلَى رُؤُوسِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ: هَذَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، مَنْ كَانَ لَهُ حَقٌّ فَلْيَأْتِ إِلَى حَقِّهِ، فَتَفْرَحُ الْمَرْأَةُ أَنْ يَكُونَ لَهَا الحق على أبيها أو أمها أَوْ أَخِيهَا أَوْ زَوْجِهَا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[1]، فَيَغْفِرُ اللهُ مِنْ حَقِّهِ مَا يَشَاءُ وَلَا يَغْفِرُ مِنْ حُقُوقِ النَّاسِ شَيْئًا، فَيُنْصَبُ لِلنَّاسِ فَيُنَادَى: هَذَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، مَنْ كَانَ لَهُ حَقٌّ فَلْيَأْتِ إِلَى حَقِّهِ. فَيَقُولُ: رَبِّ فَنِيَتِ الدنيا من أين أوتيهم حقوقهم؟ فيقول: خُذُوا مِنْ أَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ فَأَعْطُوا كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ بِقَدْرِ طَلَبَتِهِ، فَإِنْ كَانَ وَلِيًّا لِلَّهِ فَفَضَلَ لَهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ضَاعَفَهَا اللهُ لَهُ حَتَّى

(١) الْمُؤْمِنُونَ: ١٠١.

يُدْخِلَهُ بِهَا الْجَنَّةَ ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْنَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾[١]، قَالَ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ. وَإِنْ كَانَ عَبْدًا شَقِيًّا قَالَ الْمَلَكُ: رَبِّ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ وَبَقِيَ طَالِبُونَ كَثِيرٌ، فَيَقُولُ: خُذُوا مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَأَضِيفُوهَا إِلَى سَيِّئَاتِهِ ثُمَّ صُكُّوا لَهُ صَكًّا إِلَى النَّارِ[٢].

وروى مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[٣].

---

(١) النساء: ٤٠.

(٢) أورده ابن كثير في تفسيره (٢/٢٦٧) وقال: وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ زَاذَانَ بِهِ نَحْوَهُ، وَلِبَعْضِ هَذَا الْأَثَرِ شَاهِدٌ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ.

(٣) أخرجه مسلم برقم: (٢٥٨١).

ومن هنا ندب النبي ﷺ أمّته إلى التصافي مع أصحاب الحقوق في الدنيا قبل أن تقع لهم مفاجآت سيئة يوم القيامة.

فروى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**»(١).

❋ ❋ ❋

المثال الثالث

رجل يصلي ويصوم ويفعل الخير الكثير لوجه الله تعالى، إلا أنه لا يتورّع عن الوقوع في الفواحش حيث لا يراه الناس.

فإذا بُعث يوم القيامة ورأى ثواب أعماله

(١) أخرجه البخاري برقم: (٢٤٤٩).

الصالحة اطمأنّ إليها، وظنّ أنّها بكثرتها ستُنجيه من عذاب الله تعالى، وحتى الفواحش التي كان يعملها في الدنيا فلن تبلغ بظنّه مقدار حسناته ولا قريبًا منها.

إلا أنه يُفاجأ بعد عرض سيئاته أنها فاضت على حسناته وغمرتها، وليس بسبب كثرتها ولكن لاقترانها بخطيئة أكبر عند الله منها، وهي جرأته على محارم الله وعدم خشيته من الله في سِرّه.

فالمؤمن قد تغلب عليه شهوتُه فيزني، ولكنه حين يزني لا يلبث أن يشعر بالندم والخوف من عاقبة خطيئته في الآخرة، وأما صاحبنا هذا فكان يزني ويزني ثم لا يشعر بخوف أو ندم، بل هو مطمئن إلى نجاته في الآخرة بسبب كثرة حسناته، فهذا المسكين إنّما أرداه اغتراره بالله وتجرؤه عليه.

ودليل هذا المثال ما رواه ابن ماجه عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا**. قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ. قَالَ: **أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ**

جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا»[1].

ففي هذا الحديث يُخبر النبي ﷺ أنّه سيكون في أمّته أقوام، يُبعثون يوم القيامة وفي جُعبتهم كثير من الحسنات، وشبّه النبي ﷺ حسناتهم بالجبال من عِظمها وكثرتها. ثم أخبر أن الله تعالى يبطل لهم حسناتهم تلك على عِظمها وكثرتها.

فخاف الصحابة رضي الله عنهم حين سمعوا هذا الحديث، وطلبوا من النبي ﷺ أن يصف لهم هؤلاء الأقوام ويزيد في تجلية أمورهم وكشف أحوالهم، وما الذي أوصلهم إلى هذا المصير، خوفًا من أن يقعوا فيما وقعوا فيه.

فهنا أخبرهم النبي ﷺ أن هؤلاء الأقوام ليسوا من المنافقين الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، بل هم مؤمنون مثلهم ويُطيعون الله تعالى مثلهم، حتى إنهم ليُقيمون الليل أحيانًا، تمامًا كما يفعل

(١) أخرجه ابن ماجه برقم: (٤٢٤٥)، وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: (٥٠٥).

الصحابة في قيام الليل، إلا أنّ هؤلاء الأقوام كانت عندهم مصيبة كبيرة وخطيئة عظيمة أَوْدت بهم وأسخطت عليهم ربهم، ألا وهي: اغترارهم بالله وجرأتهم على محارمه، فكان أحدهم اذا اختلى بامرأة وأعجبته لم يتردد في الزنا بها، وهو يظنّ أنه بمأمن من عذاب الله سبحانه بسبب كثرة حسناته وعلوّ منصبه الديني، فالمصيبة عند هؤلاء ليست في الزنا ولكن في اعتقادهم أنّ لهم عند الله بسبب كثرة حسناتهم مقامًا لا يؤاخذون بعده بما يفعلون.

لذلك على المؤمن ألّا يغترّ بكثرة حسناته وألّا يظنّ أنه ناجٍ لا محالة، بل عليه أن يبقى في خوف من الله تعالَى وفي وَجَل ولو عمل من الصالحات أمثال الجبال.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾[1].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرها: أي يُعطون العطاء وهم خائفون وَجِلون أن لا يُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ،

(١) المؤمنون: ٦٠.

لِخَوْفِهِمْ أَنْ يَكُونُوا قَدْ قَصَّرُوا في القيام بشرط الْإِعْطَاءِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْإِشْفَاقِ وَالِاحْتِيَاطِ[1].

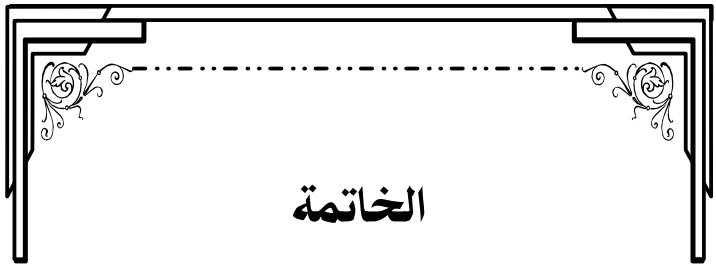
وروى الترمذي أن عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: **لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾»[2].

فهؤلاء الذين أثنى الله عليهم في القرآن الكريم هم الذين يعملون ما يعملون من الصالحات وهم مع ذلك خائفون من أن لا يتقبل الله تعالى منهم أعمالهم الصالحة، فكيف يغتر بالله ويأمن من عذابه من كان ينتهك محارم الله في خلواته!

❀ ❀ ❀ ❀

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (٥/٤١٨).

(٢) أخرجه الترمذي برقم: (٣١٧٥)، وصحّحه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي.



الخاتمة

وفي الختام، فالآية القرآنية حذّرت من مصيرٍ كمصير صاحب البستان، الذي غرس كثيرًا من الأشجار المثمرة في شبابه، وادّخرها لوقت شيْبته وعَجْزه، ولكنه لم يُحطها بسور يحفظها من عاديات الزمن، فلما بلغ سنّ الضعف والهَرَم واشتدّت حاجته إلى ثمار بستانه عصفت بها ريح قوية لم يكن يتوقّعها فأبادتها في أشدّ الأوقات احتياجًا إليها. وهذا مصير كل من غرس في حياته الأعمال الصالحة غير أنه لم يحصّنها من مُفسدات الأعمال، فلما بُعث بعد موته واشتدّت حاجته إلى حسناته عَصفت بها تلك المُفسدات التي لم يَحسِب لها حسابًا فأحبطتها في أشدّ الأوقات احتياجًا إليها.

وضربت بعض الأمثلة على ما يُفسد الأعمال

الصالحة، ولعلّ أوضحها هو المثال الأول، وأعني به مثال المنّان بصدقته، وذلك لأن الآية التي معنا إنما جاءت في سياق الآيات التي حذّرت من المنّ بالصدقة وبيّنت بطلان الصدقات بالمنّ بها.

والله تعالى أسأل أن يبارك لنا في أعمالنا الصالحة وأن يحفظها لنا من كل ما يُفسدها.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
متن الأثر	٩
شرح الأثر	١١
تفسير الآية الكريمة	١٧
أمثلة على بعض المفسدات للأعمال الصالحة	٢٥
المثال الأول	٢٦
المثال الثاني	٣٨
المثال الثالث	٤١
الخاتمة	٤٦
الفهرس	٤٨